

الهويات المرتجلة؛ تمثيل تاريخية الهجنة في مقابل تحيزات الهوية في الرواية الجزائرية

Itinerant Identities: Representing the Historicity of Hybridity versus Identity Biases in the Algerian Novel

الأستاذ سليم حيولة.

جامعة يحيى فارس. المدينة (الجزائر)،

haioula@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2026 / 07/14

تاريخ القبول: 2026/04/06

تاريخ الاستلام: 2026/03/16.

ملخص:

تسعى الرواية المعاصرة، المنتمية إلى بلدان العالم الثالث، في غالبيتها، إلى تجسيد فكرة الغيرية والاعتراف بعالم التسامح والتعاون، وفسح المجال للتعايش والاحترام، كتعبير حقيقي عن الواقع البشري في خضم الحضارات المتعاقبة منذ القديم، وذلك في مقابل فكرة الهوية الثابتة، كفكرة مصطنعة (تلك التي تدعي أنّ الهويات منتهية، ولا تُؤمن بالتراكم التاريخي، نتيجة العلاقات بين البشر) حولتها سياقات التاريخ إلى حقيقة لا مناص منها، بفضل ظروف خاصة، لذلك تنحو الرواية المعاصرة إلى إبراز مواطن الاتفاق بين مختلف الأجناس، بفضل المشترك الإنساني، في الحياة والمصير والقيم، باعتباره طبيعة كونية وستة إلهية، وتسعى كذلك للحد من سطوة الهوية الثابتة، المقصية لغيرها من الهويات، بهدف تحقيق عالم أكثر تسامحا وتعايشا، وهو الهدف والغاية التي تصبو إليها المجتمعات، بمختلف مكوناتها، وعليها مدار الحياة المعاصرة، وقد كان أدب الأروبيين في الجزائر، بدءا من "لويس برتراند"، الذي يُعدّ أبا للرواية الكولونيالية، سطر خطّ هذا الأدب كلّهُ، قائما على فكرة الغزو؛ غزو هوية لأخرى، والحلول مكانها، دون تدبّر فيما يجمع بينهما، هوية

ترى نفسها أصيلة ومكتملة، وفي هذا المعنى تدور رواية "الغريب" 1942 لـ "ألبير كامو"، إذ جعل "ميرسو" الشخصية الأساسية في الرواية، تتركّز حول ذاتها، في نوع من الدّاتية المغلقة، النّافية لغيرها، باعتبارها أرقى من الجزائريّين، أبناء البلد وأصحاب الأرض الحقيقيّين، وتُعبّر، في الوقت ذاته، عن صراع بين هويّتين، وقائمة على نفي وجود الجزائريّين، وتعبيرا عن جوهر فكر كولونيالي، يستهدف استبدال شعب أروبيّ بشعب جزائريّ أصيل، والتّحيّز لما يعتبره هوية فرنسية-أروبية "ضاربة في التاريخ". ولم تكن رواية "صراع الحضارات حول مصعد ساحة فيتوريو" للكاتب الجزائري "عمارة لخصّ" إلّا ردّا على رواية "الغريب"، تستهدف خلخلة بنيتها الفكرية وتفجير تحيّزاتها للكشف عن وجود عالم من التّعايش والحوار بين مختلف المجتمعات.

الكلمات المفتاحية: عمارة لخصّ / ألبير كامو / الهوية الثّقافية / التّحيّز / التّعايش

Abstract:

Contemporary novels from the Global South largely seek to embody the concept of alterity and the recognition of a world rooted in tolerance and cooperation. They aim to foster coexistence and mutual respect as a truthful reflection of human reality across successive civilizations since antiquity. This stands in contrast to the notion of a fixed identity—an artificial construct that claims identities are final and denies historical accumulation as a result of human interaction. Such identities have been transformed by historical contexts into seemingly inescapable truths due to specific circumstances. Accordingly, the contemporary novel tends to highlight points of convergence among different peoples through shared human values related to life, destiny, and ethics, viewing these as universal and divinely ordained. It also seeks to limit the dominance of rigid identities that exclude others, with the goal of achieving a more tolerant, harmonious world—a goal toward which societies, in all their diversity, continually aspire and upon which contemporary life is founded.

European literature produced in Algeria, starting with Louis Bertrand—considered the father of the colonial novel—established an entire literary tradition based on the idea of conquest: the conquest of one identity by another, replacing it without considering what unites them. This identity

imagines itself as original and complete. In this sense revolves Albert Camus's *The Stranger* (1942), where the protagonist Meursault embodies a closed, self-centered subjectivity that negates the Other, considering itself superior to Algerians, the true people of the land. The novel simultaneously expresses a clash between two identities and constructs its narrative by negating the existence of Algerians, articulating the essence of a colonial ideology that seeks to replace an authentic Algerian population with a European one, privileging what it imagines to be a deeply rooted French-European identity. The novel "The Clash of Civilizations Around the Elevator of Piazza Vittorio" by the Algerian writer "Amara Lakhous" is a response to the novel "The Stranger," aiming to disrupt its structure and explode its biases in order to reveal the existence of a world of coexistence and dialogue between different societies in our world .

Keywords: Amara Lakhous-Albert Camus-Cultural Identity-Coexistence-Bias.

1. مقدمة:

بينما كانت الرواية الجزائرية والمغربية، التي كُتبت باللغة الفرنسية، منذ أربعينيات القرن العشرين، حتى التسعينيات منه عموماً، تعبّر عن تأزم هوياتي لدى المهاجرين في المجتمعات الأوروبية، ومعاناتهم من مشاكل الاندماج والتعايش، فإنّه بداية من القرن الجديد، ومع كتابات الجزائري "عمارة لخص" أصبح خطاب الجزائريّين في المهجر الأوروبي، موجّها للعقل الأوروبي، المتمركز والمتحيز، وأصبح سردية تُقاوم سردية مركزية، متجذّرة في الفكر الأوروبي الكولونيالي، وفي هذا المعنى تدور سردية رواية "صراع الحضارات حول مصعد ساحة النصر" للروائي الجزائري عمارة لخص"، التي قامت "إليز غريبو" بترجمتها إلى اللغة الفرنسية، وهي الرواية التي كان قد نشرها مؤلّفها باللغة العربية في عام 2003 ثمّ باللغة الإيطالية، وهي نصّ جماليّ ثري، يُؤكّد فيه لخص، على هجنة المجتمع الإيطالي خاصّة والمجتمعات الأوروبية بصفة عامّة، والمجتمعات البشرية منذ القدم أيضاً، من خلال الإصرار على فكرة أنّ الأجنبي مكوّن أصيل فيها، مقدّماً تصوّراً مختلفاً

عمّا ورد في رواية "الغريب"، التي قدّمت تصوّرا أوروبيا خالصا، وتصبو هذا الدّراسة إلى توضيح فكرة أنّ المجتمعات متعدّدة الثقافات، وإنّ حضور الأجنبي فيها أمر تاريخي .

وتندرج هذه الدّراسة ضمن التّظيرة الأدبية المعاصرة، التي تسعى، خلافا للرؤى الجمالية الفنية، للنّظر إلى الأدب في علاقته بالعالم، الذي نعيش فيه، ليس بالمجتمع والإنسان فحسب، وإمّا ربطه أيضا بالتّماذج؛ الاقتصادية والتّحيزات الثقافية، التي تُحدّد فهمنا وإدراكنا للتّاريخ وللمجتمع وللتّحافة كذلك.

أولا، ألبير كامو؛ فضاء الآخر والهوية المتمركزة

على الرغم من أهمية المفاهيم التي استحدثتها علم الاجتماع والفلسفة، من أجل حلّ الإشكالات التي تعيشها المجتمعات المعاصرة ولتكوين عالم أفضل، وإحلال التّعايش الفعلي داخل المجتمع الواحد، وبين المجتمعات التي تُشكّل عالم اليوم، مثل الهوية والاختلاف والتّعددية وغيرها، إلّا أنّ وجود هذه المفاهيم أصبح يبدو مقحما، متكلّفا، بدل أن يكون تعبيرا عن الطبيعة البشرية وعن العالم الإنساني الفعلي، وسيرا مع السّنة الكونية، التي أودعها الله البشر، فالهويات الثقافية والاختلافات تُكوّن مضمون العالم، منذ بدء الخليقة .

في إطار التّعبير عن الهوية الثّابتة، التي تدخل في صدام مع ما تفترضه آخر، مختلفا وضديا في كثير من الأحيان، من حيث الأصول التاريخية والثّوابت الاجتماعية والثقافية والدّينية، تبرز كتابات "ألبير كامو" الأدبية منها والفلسفية، كوثائق تاريخية عن حقبة أوروبية من سوء فهم واسع حول العالم وعن الآخر، تتغّى فيها أروبا بتنويرها وحدثتها، التي ترى أنّها أخرجتها من عالم القرون الوسطى المظلم، والتي كوّنت لها، في حقيقة الأمر، مركزية هوياتية، منعتها من رؤية الحياة البشرية على حقيقتها، في تاريخها ومجتمعاتها وثقافتها، في هذا الإطار التاريخي تظهر رواية "الغريب" لتعبّر عن التّحيزات الأروبية وعن سطوة هوية ترى نفسها أصيلة، والأقدر على أن تكون رؤيتها هي الغالبة في حقّ الآخرين، مؤكّدة الاختلاف الجوهرى بينها وبين الهوية الجزائرية، وتظهر شخصية "ميرسو"؛ بطل الرواية، كهوية غازية، تغزو عالم الجزائر، الاجتماعي والثقافي، ولا تعترف بالجزائريين، ولا بتاريخهم العريق، ولا تعترف كذلك بسيادة الثقافات وتنوّعها، تُريد فرض نفسها كنموذج ثقافي راقٍ، وتعمل على نفي الآخر في الوقت نفسه، حتى ولو كان هذا الآخر في بلده، في انتهاك

صارخ لسيادته، ومسّ بثوابته، وعلى المنوال ذاته كان الحضور الأروبي الاستعماري في البلدان العربية والإفريقية، وكان الأدب إحدى الأنواع التي عكست هذه الرؤية الضيقة ورافقتها، وعبر عن ذلك العديد من المؤلفين الأروبيين، الذين عاشوا في البلدان المستعمرة .

عرفت الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي الغاشم بروز العديد من الكتاب؛ شعراء وروائيين وكتاب مسرح وقصة وغيرها، سواء ممن جاؤوا مع الغزو ورافقوه، أو الذين وُلدوا بالجزائر وعاشوا فيها، وغدّوا يُعبرون عن فكر أروبيّ البلاد، كحالةٍ لفرض نموذج ثقافي واحد، وكانت إبداعاتهم تكتنز بنية فكرية، أصبحت، مع مرور الوقت، تُكوّن نسقية، سمّاها أحد أبرز نقّاد الخطاب الكولونيالي، المقارن الفلسطيني-أمريكي "إدوارد سعيد" بـ"اللاشعور الكولونيالي"¹، ويقصد بذلك البنية الفكرية، التي تنطلق من مركزية الذات، باعتبارها الرؤية الأوحّد، والتي جمعت فكر أغلب الكتاب من أصول فرنسيّة، لروابطهم التاريخية مع بلدان الاستعمار، ولاشتراك مصيرهم في المستعمرات، ويذهب المؤرّخ الجزائري "عبد الحميد سرحان" إلى أنّ الأدب الكولونيالي في الجزائر، قد عبّر عن عملية الهجرة الجماعية المنظّمة للمستعمرات، إذ « كان التّجميع والحشد لمختلف السكّان من الأصل المتوسّطي الموضوع المركزي للروايات الكولونيالية، خاصة ابتداء من 1935... إنّ عالما متوسّطيا، حيث كان البحر دائما يتواجد ويحضر مأكثا ومقيما على هذب وتُخوم البلد، قد وُظّف كثيرا عبر الأعمال الأدبية الكولونيالية»². فقد عبّر الأدب الكولونيالي عن تلك "الهجرة الأروبية" إلى المستعمرات؛ التّجمّع والحشد في فضاء الآخر، إذ قصد الجزائر المستعمرة عددٌ كبير من الأروبيين في هجرة نحو الجنوب، ليس طلبا للعمل أو حياة أفضل فحسب، وإنّما من أجل الاستيلاء على أرض، لها مَلاكها الأصليون، الضارب وجودهم في التاريخ، تدفعهم إلى ذلك رغبتهم في الحلول مكان أهل البلاد، والانغراس، بعمق، في الأرض، وإثبات أحقية هوية ثقافية بما ليس لها، مدّعين، في الوقت ذاته، أنّهم جنسٌ "متحضّر"،

¹ - يُنظر؛ إدوارد سعيد، ألبير كامّي أو اللاشعور الاستعماري، ترجمة محمد هشام، في؛ الإسلام والغرب، (الأنا والآخر)

الكتاب الأول بإشراف محمد عابد الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر. بيروت، الطبعة الأولى 2009

² - عبد الحميد سرحان، الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر ما بين الحربين، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية. الجزائر،

وهم، في حقيقتهم، يشعرون بالتفوق العرقي، وهو الفكرة الأساس التي قامت عليها الكولونيالية، ومن أجل تبرير مجمل أفعالهم ادّعوا أنّهم جاؤوا من أجل مهمة "تحضير" شعوب تلك البلاد و"تطويرها"، وإخراجها من "تخلّفها"، وهو الادّعاء، الذي ظلّ مرتبطا بالاستعمار في أيّ بلد حلّ .

فهذا التّجميع والحشد لمجموعة كبيرة من الأوروبيّين، هو في حقيقته محاولة زرع هوية في مكان ليس هو الفضاء الثقافيّ الأصليّ لها، وهو انتقال لهوية وارتحال لها، بالموازاة مع سيطرة الاستعمار وشيوعه، ولم يكن الأمر متعلّقا بسيطرة اقتصادية وسياسية أو أيّ نوع آخر من الحماية فحسب، بل كان مدار الأمر متعلّقا بعقل أروبي متمركز، يرى نفسه "أفضل" و"أنقى" و"أطهر" من غيره، وهي الطهارة التي تكوّنت، حسب اعتقاده، منذ القديم؛ ترجع إلى اليونان وصولا إلى الاتحاد الأروبي، مروراً بالرومان، له الحقّ في تسيّد ما شاء له من بشر وبلدان، في إطار ما يُسمّيه الفيلسوف اللّبناني "محمود حيدر" بـ"الجغرافيات المستباحة"، في مقابل الجغرافيا الأوروبية، ويقصد بها الأرض، التي نشأت فيها الفكرة الـ"مابعد استعمارية"، كأطروحة مقاومة فكرية وكفاحية للهيمنة والتّوسّع، فالعقل الاستعماري في حقيقته استباحة للجغرافيات، بدعوى الأفضلية والقدرة، ويضيف الفيلسوف أنّه «في الفكر الاستعماري الذرائعي يُنظر إلى كلّ ممكن وواقعي بوصفه أمراً عقلاانياً. يحصل هذا حتّى لو كان مقتضى الوصول إلى الهدف إيذاء الغير وانتهاك حياضه السيادية»³. فالفكر الاستعماري، المرتبط بالرجل الأبيض والمكوّن لجوهر أروبا وتاريخها الثقافي والاجتماعي، أدّى إلى تحقّق الاستعمار، تشترك في ذلك أغلب كتابات فلاسفتها ومفكرّيها وأدبائها، بعكس الحضور الشرقي في الثقافة الغربية والمجتمعات الأروبية، والعربي منه على الخصوص، الذي كان إغناءً لها، وأصبح جزءاً من نسيجها الاجتماعي والثقافي، وما يزال، فالغرب قائم على هويات متعدّدة، لكنّها تعيش واقعا غير عادل، اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا أيضا .

³ - محمود حيدر، نقدُ مباني العقل الإمبريالي، مدخل تأسيسي، في كتاب من تأليف جماعي، نحن وأزمة الاستعمار، نقد المباني المعرفية للكولونيالية وما بعد الكولونيالية، الجزء الثالث، تحرير محمود حيدر، الطبعة الأولى، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية. بيروت، 2018، ص 15، وحول مفهوم "الجغرافيات المستباحة" يُنظر؛ ص 10

وانطلاقاً من كلّ ذلك، فإنّ كتابات "ألبير كامو" الأدبية لا تخرج عن هذا العقل الأوروبي الكولونيالي، "الأنواري"، المستبدّ، والمتحيز، فقد كان "ميرسو"، الشخصية الأساسية والمحورية في رواية "الغريب"، أحد نتاجات عملية التّجميع تلك، التي كوّنّت لأولئك الأروبيين هوية موهومة، أو بزعم امتلاكهم هوية تاريخية، قائمة بذاتها، جعلت كتابات أولئك الأدباء من أصول فرنسية سردية، تُبشّر بقدوم "الأخيار" إلى أرض "الأشرار"، وهي مسألة مغلوطة تماماً، لكنّ الرواية تحت قارئها على التّسليم بهذا والاعتقاد فيه، ومن الطبيعي أن تُرافق هذه السردية تلك الرحلة التي قطعها هؤلاء القادمون من الشمال، لتُصبح سردية قوية ومنظمة، قائمة على؛ الإنسان المتحضّر ومنطلقة ممّا يُعرف بالمركزية الأوروبية، في قوّة وسطوة لا نظير لها، وتهدف، خلافاً للدّعاء، إلى إخضاع هذا الآخر واستعباده، والحلول مكانه، ولئن كانت حياة الإنسان في القديم قائمة على السطو والغزو، من أجل تأمين حياته وحياة أسرته وقبيلته، فإنّنا في هذه الحالة أمام غزو، مثله هوية تدّعي التّقاء والصفاء، من أجل نكران الأصلاحي ونفيه، في نسقيّة منتظمة، تُعبّر عن "نسق الاستبعاد"؛ استبعاد ابن البلد ونفيه .

وإذا كانت كتابات الجزائريّين في تلك الفترة، سواء التي ظهرت باللّغة العربية أو بالفرنسية، تقوم الأولى على إظهار الشعور بالانتماء للجزائر، وتثبيت عناصر الهوية والتّاريخ، فإنّ كتابات أغلب هؤلاء المعمرين تنحو نحو نظرة ضيقة، تستبيح الأرض وتنفي التّاريخ، ويُعالج النّاقّد الجزائري "سيدي محمد بن مالك"، في كتابه "الرواية الجزائرية المعاصرة، بين التّخييل والتّاريخ"، هذه المسائل بعمق فكري، وينفذ بعيداً في إدراك علاقة رواية المعمرين في الجزائر بالجزائريّين وبالتّاريخ، إذ بعد مقارنته بين رواية "ميرسو، تحقيق مصاد" ورواية "الغريب"، يُقدّم لنا خلاصة ما توصّل إليه، ويذهب إلى أنّ «المنطق الذي يقوم عليه تخييل "الغريب" الكولونيالي؛ ذلك المنطق الذي يضرب صفحاً، حكايا وخطايا وتلفظياً (أي سردياً)، عن هوية العربي"، فيغفل تحديد كينونته، من اسمٍ وملامح وصفات ويتجاهل أفعاله... ويُهمل مسارَ حكايته، الذي يفترض أنّه يُناقض مسارَ حكاية ميرسو قبل أن يتشابك المساران لحظة وقوع حدث القتل، ويحرمه من

سرد ذلك المسار انطلاقاً من سردية ذاتية تُسَعِّفه في إظهار موقفه من الأحداث ونظرتَه للوجود»⁴. فعلى الرغم من انتماء نصّ "الغريب" للتخييل، باعتباره نصّاً روائياً، إلّا أنّه وَطَّف التاريخ ليس كبنية خلفية لأحداث الرواية كما معروف في هذا المقام، وإنّما برعت الثقافة في نحت تمثيلاتهِ للعربي(الجزائري)، الذي يبقى مزاحاً من مشاهد النَّصِّ من أوّلِهِ، في تقابل صارخ بينه وبين الأوروبي، تميل الكفّة فيه لهوية "ميرسو"، التي تظهر بشكل بارز، من حيث الاسم والصفات والأحاسيس والأقوال والأفعال، بينما تبقى صورة الجزائري هلامية، لا نستطيع إدراك ماهيته أو عناصر تكوينه، وكما يذهب الناقد الجزائري، فإنّ هناك مساران في الرواية؛ الأوّل مسار ميرسو، والثاني مسار الجزائري، والملفت أنّ الجزائري محروم من سرد حكايته، وهو ما يمنعه من إظهار مواقفه من المسائل المتعلّقة بالحياة ومن نظرتَه للوجود، التي تبقى حكرًا على "ميرسو" فحسب، وهذا الحرمان هو في حقيقته حرمان للذات من أن يكون لها موضوع، ليس في مسار الرواية فحسب، وإنّما في الأرض التي هي أرضه، لأنّ حلول هوية المعمّر الأوروبي منعتَه من ذلك.

عرض الكثير من الباحثين والمهتمين بدراسة الرواية الكولونiale، وأشار عددٌ منهم إلى التّجانس بين فكر "كامو" الفلسفي وبين إنتاجاته الأدبية، عبّرت عنه نصوص فلسفية نشرها، من بينها "أسطورة سيزيف" 1942⁵، التي نشرها في السنة نفسها التي ظهرت فيها روايته "الغريب"، ولا يُمكن بأيّ حال من الأحوال فصل فلسفة "كامو" عن أدبه، الذي يُعدّ التّجسيد الأكثر تعبيراً وتوثيقاً لإيمانه بمسائل الإنسان والوجود، لذلك كانت سردية "كامو" الاستعمارية مُجسّدة لمسألة "السيد" و"العبد"، التي تُعدّ مكوّنًا بنوياً ثابتاً في الثقافة الغربية، إذ جعل "السيد" (المستعمر) يتحرّك للقاء "العبد" (المستعمر)، وهو تحرّك لم يكن من أجل اللقاء، بل من أجل التّقي والإزاحة، نجد أنّ هذه الممارسات قد طغت على نصّ الرواية كلّها، من خلال

⁴ - سيدي محمد بن مالك، الرواية الجزائرية المعاصرة، بين التّخييل والتّاريخ، دار خيال للنّشر والتّرجمة، الجزائر، 2021، ص 25-26

⁵ - بدأ "كامو" كتابة "أسطورة سيزيف" سنة 1940، في العام الذي بدأت فيه الحرب "العالمية" الثانية، والتي يُسمّيها بالكوارث الفرنسية والأوروبية ويُصرّح بأنّ المسألة الأساسية في هذا الكتاب هي التّساؤل الذي يراه ضرورياً عمّا إذا كان للحياة معنى، غير أنّه من جهة أخرى يرى أنّ الكتاب يُلخّص نفسه لي باعتباره دعوة سهلة إلى العيش والخلق، حتّى وسط الصحراء. يُنظر؛ ألبير كامو، أسطورة سيزيف، ترجمة أنيس زكي حسن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، المقدّمة، ص 7

الفضاء المكاني والشخصيات وكذلك التأمّلات والأحداث، ويذهب الفيلسوف المصري "عبد الغفار مكاوي" بعد قراءته الواعية لكلّ من "أسطورة سيزيف" و "الغريب" بأنّ ميرسو لم يكن يُجسّد سوى ما يُسمّيه بـ "الحساسية بالحوال" وهي فكرة تناولها كامو" في مقاله الفلسفي "أسطورة سيزيف"، تُفسّر العديد من المسائل المتعلقة بـ "كامو" نفسه وبشخصيّاته الروائية، لأنّ هذه الحساسية بالحوال، بحسب الفيلسوف المصري «تُبيّن لنا لماذا يتمسك كبار الروائيين بالظواهرات العينية المعطاة، ولماذا يُعبّرون عن أنفسهم بالصور المحسوسة، بدلا من التأمّلات والأحكام العقلية والمنطقية. وهي بهذه المثابة تعبيرٌ عن فكرٍ محدود متناه، متمرد بطبيعته. فميرسو حين يُسلم نفسه للمعطيات الخالصة، وللتجربة الحيّة المباشرة يرفض في الحقيقة كلّ أنظمة التفسير والتعليل، ويُلقي بنفسه، إن جاز التعبير، في صحراء خالية من كلّ دلالة أو معنى. ما من شيء له قيمة بالنسبة إليه غير الواقع الحاضر المتعين... إنّ ميرسو يتحدث عن نفسه كما لو كان هو "الآخر"، والأنا عنده تُصبح كما لو كانت "هو". كلّ عبارة ينطق بها تقف وحيدة منفردة، لا تربطها بالعبارة التي تليها علاقةً سببية»⁶. فقد بُنيت الفلسفة، وكذلك كان كبار فلاسفة أوروبا والعالم، على التأمّل والملاحظة العقلية، وذلك جزء من مهمّة الفلسفة، من أجل صياغة القيم الإنسانية الفضلى، وتوجيه العالم إلى المفاهيم الكبرى، وقد يُخطؤون في تلك الأعمال التأمّلية، لكنهم يبقون مصرّين على تتبّع المعنى والدلالة وتذليل عملية الفهم، لكنّ "كامو" بفلسفته التي أشاح عنها الوشاح في "أسطورة سيزيف"، وانعكست في بعض كتاباته، لم تكن قادرة على عمل ذلك، لأنّها كانت تُحيل إلى تتبّع التجارب الحيّة الماثلة أمام العين، ولا إمكانية لخوض تجربة التأمّل والتدبّر، التي تجعله يُدرك حقيقتها، فكان أشبه بالفيلسوف النفعي (البراغماتي)، الذي يُمارس الفلسفة التطبيقية، وقد انعكس ذلك على آرائه في قضايا عصره كالأحداث التي رافقت الثورة البلشفية في روسيا، وهو هنا يتشابه، إلى حدّ كبير، وما يقوم به الفيلسوف الفرنسي ذي الأصول اليهوديّة-الصهيونيّة "برنار هنري ليفي"، الذي ترك التأمّل والتنظير وانكبّ على النزول إلى الميدان من أجل الوقوف على تطبيق المشروع العالمي للصهيونية، الذي يُشرف عليه منذ سنين طويلة، فضلا عن كلّ ذلك، فإنّ "كامو" من نوع

⁶ - عبد الغفار مكاوي، ألبير كامو، محاولةٌ لدراسة فكره الفلسفي، دار المعارف بمصر، 1964، ص 94-95

الفلاسفة الذين يُفضّلون الإجراء على التأمل والانعزال، لذلك ساند فرنسا في الحرب "العالمية" الثانية (1940-1945)، ليس في إطار مفهوم المثقف الحرّ، المدافع عن القيم الإنسانية والحرية، بل في إطار انخراطٍ نفسيّ في الشعور بالانتماء لبلد والده "فرنسا" وبالبلد الذي ينتمي إليه بعمق، وكان ذلك، على ما يبدو، عقدة نقصٍ من كونه ينتمي لطبقة مسحوقة اقتصاديا في الجزائر، وهو الأمر أيضا ما جعل رأيه غير واضح البتّة، فيما يتعلّق بالاستعمار الفرنسي للجزائر، جعلته لا يُدرك حقيقة القضية الجزائرية، ولم يستطع مناصرة ثورة التحرير المجيدة، التي كانت على حقّ في نهوض الشعب الجزائري ضدّ الاستعمار، وهو يتسلّم جائزة "نوبل" للآداب سنة 1957 بستوكهولم، والثورة الجزائرية ضدّ الاستعمار الفرنسي كانت قد بلغت مرحلة حاسمة، عسكريا وسياسيا واجتماعيا، ألقى كامو "خطابا عُرف بـ"خطاب ستوكهولم"، لم يقم بإدانة للاستعمار وظلّ يُردّد "الشقاء المتواصل في الجزائر، وكان يقصد بذلك انعكاسات حرب التحرير على البلاد لأنّه سيُفصح عن رأيه حين ذكر أنّ «هؤلاء الرجال الذين وُلدوا في بداية الحرب العالمية الأولى، وبلغوا سنّ العشرين في وقت متزامن مع إقرار حكم هتلر والمحاكمات الثورية الأولى، والذين واجهوا لاحقا، لإكمال تربيتهم الحرب الإسبانية، والحرب العالمية الثانية، وعالم معسكرات الاعتقال، وأوروبا التعذيب والسجون؛ إنّ على هؤلاء أن يُربّوا أبناءهم وأعمالهم في عالم مهدّد بالدمار النووي. وأفترض أن لا أحد يُمكن أن يطلب منهم أن يكونوا متفائلين...»⁷. فما كان يتألّم له هو معاناة جيله من الأوروبيين الذين وُلدوا أثناء الحرب العالمية الأولى وهو واحدٌ منهم، ممّا يحدث في أوروبا، لأنّ النازية أضرتّ بأوروبا، وماذا عن الجزائر؟ كان "كامو" منخرطا في القضايا الأوروبية، ولم يكلف نفسه عناء النّظر في معاناة الجزائريين، والملاحظ أنّ مفهوم المقاومة انحصر لديه في مقاومة النّازية والثّورة البلشفية والتّنديد بقنبلة هيروشيما في 1945، باعتبارها "جرائم وعنصرية وظلم" في حقّ الإنسان، لكنّه لم يستطع أن ينظر في حالة كانت أقرب إليه، ومتعلّقة به، وهي جرائم الاستعمار في الجزائر .

⁷ - ألبير كامو، خطاب السويد، أو الفنّان وزمانه، ترجمة أحمد المديني، أزمنة للتّشريح والتّوزيع، الدّوحة، الطبعة الأولى،

ثانيا، عمارة لخص؛ الآخر كالذات، نفّي لـ"الإيغوسونتنغيزم"

تُعدّ التجربة الرّوائية للجزائري "عمارة لخص" فريدة من نوعها، على المستويين العربي والأوروبي، فهو منذ البداية ينظر إلى المسائل الحضارية والإشكالات الاجتماعية، التي استأثرت بالاهتمام في فترة ما بعد الاستعمار بنظرة متوازنة وموضوعية، لا مجال فيها للتّخندق في قوقعة الهويات المتمركزة، والإتيات الثّابتة، وهو، سيرا على السنة الكونية وطبيعة المجتمعات منذ القديم، ينحو نحو تكريس فكرة الهوية الثقافيّة الهجينة، وهو ما يُعدّ، تاريخيا وفكريا، الاعتراف بفكرة هجنة المجتمعات، كأساسٍ تاريخي، تحقّق فعليا، وليس كمشروع مستقبلي يؤمل حدوثه، لذلك فهو، وبطريقة صامتة خفية، يردّ على سردية المركز الأوروبي المتحيّزة، ليخاطب العقل الأوروبي، محاولا ردّه إلى جادة الصواب، من خلال صنع عالمٍ متخيّل يُحيل إلى التّعاش، والتّجانس، بدل الاختلاف والتّنافر، برغم اختلاف مكّونات وتعدّدها، تعبيرا عن سنّة كونية، هي الأصل، وذلك من أجل إيقاظ وعي الإنسان المعاصر، لاكتشاف التّحيّزات الهوياتية، وإدراك حقيقة الإنسان والوجود معا.

تندرج رواية "لخص" ضمن ما يُعرف في إطار التّظرية ما بعد الكولونيالية بـ "الردّ بالكتابة"، وهي تقنية في الكتابة الأدبية المشروطة بهذا السياق، جرى تعريفها، من قبل المختصّين في التّظرية بأنّها خطاب الهامش ضدّ المركز، ويذهب، جماعة من النّقاد في وصف عملية التأسيس لهذا الأدب، إلى أنّ « عملية التّغريب، التي استُخدمت في البداية لإبعاد عالم ما بعد الاستعمار إلى "الهامش" قد دارت حول نفسها، وتقوم الآن- وعبر نوع من الحاجز العقلي- بدفع ذلك العالم إلى موقع، يُمكن منه أن ترى، كلّ تجربة، تجربة غير مركزية، وجماعية وتعدّدية. وهكذا أصبحت الهامشية مصدرا غير مسبوق للطاقة الإبداعية»⁸. فجماعة النّقاد الاستراتيجيين، يتقدّمهم النّاقد البارز "بيل أشكروفت"، يرون أنّ الكتابات الأدبية، الرّوائية منها على الخصوص، وهي سمة الإبداع خلال القرن التاسع عشر، المشهور بظاهرة الاستعمار، هي كتابات كان الهدف منها الردّ بطريقة مختلفة عن كتابات المركز، أي الكتابات الاستعمارية، التي اختزلت الآخر وأدرجته

⁸ - بيل أشكروفت، جاريت جريفيثز، هيلين تيفين، الإمبراطورية تردّ بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار؛ التّظرية والتّطبيق،

ترجمة خيرى دومة، أزمنة للتّشريح والتّوزيع. الأردن، الطبعة الأولى، 2005، ص 35

ضمن الهامش، وهو ردّ، ليس على الأدب فحسب، بل على كلّ المنظومة الثقافيّة والمعرفية الأوروبية المنخرطة بعمق، في الخطاب الكولونيالي،، وقد لفت هذا الاتجاه في قراءة أدب المستعمرات من الأصليين، نظر المقارن الفلسطيني-أمريكي "إدوارد سعيد" فقدّم قراءة تصبّ في المعنى ذاته، بعد ما غفل عن مسألة الردّ بالكتابة في كتابه "الاستشراق"، وأوضح كيف استطاع الروائي السوداني "الطيب صالح" الردّ على سردية الإنغليزي "جوزاف كونراد" في روايته "قلب الظلام"⁹، والردّ في الكتابة تقنية في مجابهة الأنساق الثقافيّة الأوروبية عبر الأدب، وقد اختصّت الرواية أن تكون في المواجهة، لتصبح النّوع الأدبي الأقدر على الردّ على المركز، وتفكيك بنيته المفاهيمية، ذات المنظور الواحد .

تدور أحداث رواية "صراع الحضارات حول مصعد ساحة النّصر"، في مكان واحد هو بناية سكنية في قلب العاصمة الإيطالية "روما"، التي يكتسي توظيفها رمزيّة خاصّة، فهي بلد أروبي، وريثُ الإمبراطورية الرومانية، التي كانت، فيما سبق، تعبيرا عن قوة أوروبا وحضارتها، وكانت العمارة السكنية في روما جوهر هذه الرمزية، إذ جمعت مجموعة كبيرة من الأجناس، وحوّلهم تدور أحداث الرواية، والمتمعّن في بنية الرواية المكتوبة باللّغتين العربية والإيطالية، يُدرك أنّها تسير في خطّ مخالف لخطّ رواية "الغريب" المكتوبة باللّغة الفرنسية، ومناقض لأفكار وأحاسيس أبطالها، فإذا كان "كامو" يتحدّث للأوروبيين، مهملا الجزائريين، انطلاقا من هوية أوروبية، أوجدت لنفسها مكانا في جغرافية مختلفة عن أرض الأجداد، فإنّ "لخوص" يبيّن روايته على شخصية "أميديو" الجزائري الذي يعيش في روما، ويُخاطب الجزائريين والإيطاليين معا، ويستحضر الروائي الجزائريّ في روايته شخصيات من جنسيات مختلفة، من الإيطاليين والأفارقة ومن البلاد العربية ومن الجزائر وأفغانستان وهولندا وإيران، ومهاجرون آخرون من بلدان آسيوية ومن أمريكا الجنوبية، تعيش كلّها في مدينة روما، ويُفصح عن أسمائهم، فيذكر "إقبال أمير الله" و"عبد القادر بن قدور" و"ماريا كريستينا غونزاليس" و"يوهان فان مارتن" و"أنطونيو ماريني" و"صاندو دانديني" و"ستيفانيا ماسارو" و"ماورو باتاريني" و"بنيديتا إسبوزيتو" و"إزابيتا فاياني" و"لورينزو مانفريديني"، أثّرت بها المؤلّف فضاء نصّه، ووظّفها لتكون رمزية ذات

⁹ - يُنظر؛ إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبوديب، مقدّمة المؤلّف للطبعة الأصلية الإنكليزية، ص 57، والمتن

أبعاد حضارية وثقافية، وفي قراءة التأقد الجزائريّ "جلّولي بن ساعد" جلاء للمعنى الذي أودعه "لّخوص" نصّه السردى، إذ يذهب إلى أنّ «الرّواية وهي تُقدّم جماعات بشرية من جنسيات مختلفة وتنوّع إثني-تُقدّم أيضا هذا التنوّع والتّعدّد بكلّ ثرائه وتعدّد مصادر الثقافات التي يتأسّس عليها الوجود الفردي لكلّ طائفة بشرية، وهي إذ تفعل ذلك تحتشد للتصدّي لمخاطر التّفي الثقافيّ بكلّ الأصوات واللّغات التي تملك... تتراكب كلّ هذه الأصوات داخل النصّ الروائيّ مجسّدة منظورا خاصّا لهذه الثقافات المهذّدة في تعدّد روافدها وعمق مجراها وطوله واتّساعه... وفي تقديرنا إنّ هذا التّعدّد داخل النصّ الروائيّ إنّما جاء ليُعبّر عن حقّ الوجود وعن القيم المكتسبة في مواجهة السلطة القائمة بإملاءاتها الفوقية وقوانينها الجائرة»¹⁰. فقد كان توظيف تلك الشخصيات التي تحمل ثقافات مختلفة ومتنوّعة عملا مقصودا من قبل "لّخوص"، مركزا على ما تعيشه في الميتروبول الأوروبي، من مخاطر التّفي الثقافيّ والإزاحة الحضارية، ومحاوله كلّ واحد منها إثبات وجوده وأحقّيته في العيش الكريم، ضمن أطر المجتمع الإيطالي، والأكثر من ذلك هي تعبير من الروائيّ على أنّ هذا التنوّع في المجتمع الإيطالي المعاصر هو أمر طبيعي، لأنّه كان كذلك منذ القديم، وليس شيئا جديدا، وذلك من خلال سرد شخصية "أميديو"، الذي كان يُحدّث "دانديني" صاحب المقهى عن تاريخ روما وعلاقاتها بالشعوب في الشرق والغرب والجنوب، واتّساع الإمبراطورية الرومانية، التي سهّلت امتزاج العديد من الهويات الثقافيّة داخل روما نفسها، ومن الطبيعي أن تكون ردّة فعل الإيطالية "إليزابيتا فاياني" و"بينيديتا"، كراهية المهاجرين والنّقمة عليهم، وأنّهم هم مرتكبو جريمة القتل في حقّ "لورينزو مانفريديني" أحد سكّان البناية، الذي يجري البحث عن قاتله، الذي لم ينكشف بعد، ولعلّ هذا التصرّف من قبل السيّدتين الإيطاليتين منطلق من الشعور بالهوية في اختلافها عن الهويات الأخرى، كاستراتيجية تقوم بها الدّات، بزعم حفاظها على عناصر هويّتها، لكنّ "لّخوص" يُظهر خطأ ذلك، حيث وفي أثناء حديث صاحبها كتاب "سوشيولوجيا الثقافة والهوية" عن الهوية الاجتماعية وعرضهما لعدد من الأقوال لمختصّين في علم الاجتماع، يذهب إلى أنّه «في بعض الأماكن حاول الناس إعادة تأكيد هويّتهم القومية كوسيلة

¹⁰ - جلّولي بن ساعد، اللّغة وتعدّد الأصوات في رواية "كيف ترضع من الدّبّة دون أن تعضّك؟" مجلة الثقافة. وزارة الثقافة

دفاع، حيث اعتقدوا بوجود تهديد لهويتهم القومية من جانب المهاجرين مثلاً¹¹. فما كانت تقوم به السيدتان، هو نوعٌ من الانغلاق على هوية موهومة، غير موجودة، لأنّ المجتمع الإيطالي في حقيقته، انصهار¹² لأجناس عديدة ومختلفة منذ القديم، وإنّ لا وجود للتقاء البيولوجي، و ينطبق هذا أيضا على أوروبا، التي هي مستودع المركزية الإثنية، التي طالما كانت تعبيرا عن أصالة الأوروبيين وصفائهم، ويتّضح الأمر في الرواية عندما يتمّ اكتشاف أنّ قاتل "لورينزو" كان السيّدّة "إليزابيتا فابيان"، ما يُسقط الفكرة الشائعة عن المهاجرين باعتبارهم أصحاب الآثام والشرور.

إنّ "لُحُوص" يُخاطب الوعي الأوروبي، ويُساجل التاريخ، من أجل توضيح أنّ المجتمع الإيطالي هو مجتمع هجين، وليس كما هو في الاعتقاد، الذي كرسّه المركزية الأوروبية وجرى فهمه، ولذلك فإنّ المسألة عند "لُحُوص" ليست متعلّقة بقبول الآخر، وإنّما بالاعتراف بأنّ ما تعتبره الذات آخر، هو في الحقيقة الذات نفسها أو جزء منها، مطابق لها ومتّمسّ في الوقت نفسه، فالإيطالي في اعتباره أنّ العربي أو الجزائري والإفريقي والآسيوي مختلف عنه، لا بدّ أن يعرف أنّه هو أيضا أجنبيّ أو في حكم الأجنبي، لأنّ إيطاليا نفسها تاريخيا مكوّنة من أجناس كثيرة، انصهرت عبر التاريخ، نتيجة اللقاءات التاريخية والعلاقات المتعدّدة والمختلفة، سواء في أوقات السلم أو الحروب، وما وجود اسم Amede إلّا دليلٌ على أنّ العربي مكوّن جوهرى من مكوّنات إيطاليا، وأروبا كلّها، ينطبق هذا أيضا على المحمولات الدّينية والثّقافية والمعرفية أيضا، لذلك كلّ، فإنّ "لُحُوص" يُخاطب وعي الأوروبيين، من أجل حملهم على رؤية الحقيقة التاريخية والتّطوّر التّراكمي للمجتمع، والوضع الطّبيعي للبشر، والمجتمعات منذ الحضارات الأولى، التي قامت على مسألة الاختلاف والهجنة الثّقافية، كما سبق وأنّ أوضحنا، وهو المعنى الذي تدور حوله التّرواية والهدف الذي تصبو إلى إظهاره وتأكيدّه، نسفا لكلّ التّحيّزات المتراكمة في المجتمعات الأوروبية والغربية عموما .

¹¹ - هارلمس وهولبورن، سوشيلوجيا الثّقافة والهوية، ترجمة حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنّشر دمشق، الطبعة

الأولى، 2010، ص 99

وإنّ، وعلى الرغم من الاختلاف الواضح بين تاريخ سردية المركز وسردية الرّدّ المقاوم في حالة "لُحُوص" و"كامو"، فإنّ كتابات "كامو" تنتمي، كما رأى "إدوارد سعيد"، إلى حساسية استعمارية متأخرة، جاءت بعد أفول الخطاب الكولونيالي وازمحلالة وانكشاف بنياته النّسقية، وخفوت قوّته وهيمنته، والحقيقة أنّ الخطاب الكولونيالي ما يزال يتبطّن الفكر الأوروبي ويكوّن جوهره وبنيته الخفية، ولم يتلاش تماما، لذلك، فإنّه يُمكن القول إنّ نصّ "لُحُوص" ينخرط بعمق، في ما أصبح يُعرف اليوم بالحساسية الأدبية المعاصرة، في جانبها الفكري، التي بدأت تفرض نفسها شيئا فشيئا، مع بداية الألفية الثالثة، أين انتشر وعيٌ جديد لدى مثقفي "الهامش" بضرورة تصحيح التاريخ، تاريخ علاقة أوروبا بما وراءها، والانخراط في عملية تفكيك للبنى الفكرية والثّقافية التّاريخية، التي استقرّت في الفكر الأوروبي وأنتجت مقولاتها انطلاقا من بنية نسقية ثابتة، ما تزال تعبيرا عن كنه الإنسان الأوروبي وطبيعته عموما، وتتواصل هذه العلمية لمهاجمة ذلك المفهوم الطّاغي، المُفسّر لتلك العلاقة بين أوروبا وغيرها، ما عُرف بـ"السّيّد" و"العبد"، التي تُكوّن جوهر العلاقة بين الأنا الأوروبي والآخر، وانطلاقا من كلّ هذا أصبحت المفاهيم والقيم من إنتاج ليس الأوروبيين فحسب، بل من بقية الأجناس الأخرى كذلك، ولقد كان نقد "لُحُوص" نقدا من داخل الغرب نفسه .

عبّرت رواية "الغريب" عن تجاهل الأوروبي الغازي لابن البلد، وتمثيلات التّمطية والمختزلة حوله، ونفي تاريخ طويل للجزائر وإظهار أنّها "فرنسية"، انطلاقا من شعور بالانتماء إلى فرنسا وإلى طبقة المعمرين، في تواطؤ مع مركزية إثنية مستقبّحة، بينما عبّرت رواية "صراع الحضارات" عن تجاهل الأوروبي للوافد ين إليها من "الأجانب" ونكراهم، وهي تُخاطب العقل الغربي لتذكّره بهجنة المجتمعات، ولذلك فإنّ الاختلاف بين "كامو" و"لُحُوص" يكمن في أنّ الأول كان أدبه قائما على التّحيز والتّنفي، سيرا ضدّ الطبيعة البشرية، بينما كانت كتابات الثّاني تُذكّر بالتّعايش والهجنة الثّقافية، التي هي حقيقة تاريخية لا مرأى فيها .

مصادر الدّراسة المعرفية والمنهجية

- 1- الإسلام والغرب، (الأنا والآخر) الكتاب الأول بإشراف محمد عابد الجابري، الشبكة العربية للأبحاث والنّشر. بيروت، الطبعة الأولى 2009

- 2- عبد الحميد سرحان، الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر ما بين الحربين، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية. الجزائر، 2017
- 3- محمود حيدر، نقدُ مباني العقل الإمبريالي، مدخل تأسيسي، في كتاب من تأليف جماعي، نحن وأزمة الاستعمار، نقد المباني المعرفية للكولونيالية وما بعد الكولونيالية، الجزء الثالث، تحرير محمود حيدر، الطبعة الأولى، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية. بيروت، 2018
- 4- سيدي محمد بن مالك، الرواية الجزائرية المعاصرة، بين التّخييل والتّاريخ، دار خيال للنّشر والتّرجمة، الجزائر، 2021
- 5- ألبير كامو، أسطورة سيزيف، ترجمة أنيس زكي حسن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت
- 6- ألبير كامو، خطابُ السويد، أو الفنّان وزمانه، ترجمة أحمد المديني، أزمنة للنّشر والتّوزيع، الدّوحة، الطبعة الأولى، 2010
- 7- عبد الغفار مكاوي، ألبير كامو، محاولةٌ لدراسة فكره الفلسفي، دار المعارف بمصر، 1964
- 8- بيل أشكروفت، جاريث جريفيثيز، هيلين تيفين، الإمبراطورية تردّ بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار؛ النظرية والتّطبيق، ترجمة خيري دومة، أزمنة للنّشر والتّوزيع. الأردن، الطبعة الأولى، 2005
- 9- إدوارد سعيد، الثّقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبوديب، دار الآداب بيروت، الطبعة الثالثة، 2004
- 10- مجلة الثّقافة، وزارة الثّقافة الجزائر، العدد 19 أفريل 2009
- 11- هارلمس وهولبورن، سوشيولوجيا الثّقافة والهوية، ترجمة حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنّشر دمشق، الطبعة الأولى، 2010
- 12- إدوارد سعيد، الاستشراق؛ المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عنّاني، دار رؤية للنّشر والتّوزيع. القاهرة، الطبعة الأولى، 2006
- 13- ألبير كامو، الطاعون، ترجمة سهيل إدريس، دار الآداب. بيروت، الطبعة الثّاني، 1986
- 14- آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنّوم، دار الحوار سوريا، الطبعة الأولى، 2007

- 15- محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1996
- 16- هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، ترجمة نائر ديب، المركز الثقافي العربي، بيروت الطبعة الأولى، 2006
- Albert Camus, l'étranger et autres nouvelles, Enag Edition , Alger ,1988
- Amara Lakhous, Choc des civilisations pour un ascenseur Piazza Vittorio traduit de l'italien par Elise Gruau barzakh Alger 2008
- Saint Augustin, les confessions, traduit par Joseph Trabucco, Garnier Flammarion ;